



كَمَال لَقِيْس

## والذئب أرجم من... أخوتي



الديموقراطية متتابعةً يوميةً، وفعلُ نضالِ دُؤوبٍ تعرَّز من خلال محطات تاريخية بارزة: من مرافعة سقراط الشهيرة حول انحراف أثينا عن مبادئ الديمقراطية الحقّة، مروراً بخطب شيشرون الأربع عشرة ضدّ تعسف مارك أنطوني وضدّ الابتعاد عن أسس الجمهورية، وصولاً إلى مقاومة ابن رشد العنيدة لمنفى عقله القسريّ، وتشبُّث غاليلو بعقلانية عقله أمام محاكم التفتيش في شأن مسألة دوران الأرض. أما النهضة فهي وعيٌ مطابقٌ للواقع الجديد، واستجابةٌ موضوعيةٌ لحاجةٍ ملحةٍ في زمنٍ ملحّ.

لكنّ في غمرة الأحداث الجسام، واختلاط الأوراق، وتضارب المصالح، أصبحت الثنائيات المعرفية والمؤدلجة في معظم الأحيان (أصالة/حدائثة،

شورى/ديموقراطية، أصل/نقل، سلفية/عقلانية، معرفة/ايدولوجيا، طائفية/علمانية... الخ) مادةً دسمةً تغزو صفحات اليوميات والدوريات.

فما العمل؟ وأين تكمن المشكلة؟ هل نخرج من التاريخ أم نخرج عليه؟<sup>(١)</sup> هل نتصالح معه ونعيد قراءته وإنتاجه انطلاقاً من الوضعية الاجتماعية المشخّصة، وبعيداً عن الإسقاطات والإسفاف؟ وإذا كان الردّ بالإيجاب فإنّ هذه المصالحة تقتضي بالضرورة تصحيحاً لمسار الذات التاريخية، والعودة بها إلى الواقع العياني لتكون ذاتاً مستقبليةً؛ فهذا فقط، يستقيم جدلُ العلاقة بين العامّ والخاصّ، وبين الآنيّ والتاريخيّ.

حتّام نبقي أسرى تاريخنا المفخّخ والضبابيّ؟ أظن أنّ هذا الجموح في الكرة الأرضية، والكمّ الهائل من الطفرات التقنية والاقتصادية، والتنازع اللاهث بين مراكز الاستقطاب، وتجذّر

قاعدة الاستلاب السلعيّ الذي أصبحت بفضلها هذه القرية العالمية سوقاً كونيةً تعمل يومياً على ابتلاع الناس لتتقيّاهم سلباً... أظنّ أنّ هذا كله يحتم علينا وقفاً جادةً ومسؤولاً على أرض الواقع لا فوق سحب الصيف.

فهم يتكثرون ويوحّدون قواهم السياسية والاقتصادية والأمنية، ويتسابقون لتصريف إنتاجهم في أسواقنا... ونحن حتى الآن لا نجرؤ على التساؤل ما إذا كنا خير أمةٍ أخرجت للناس أم لا<sup>(٢)</sup>. هم يُنتجون بحساب... ونحن نستهلك بغير حساب.

هم يسخّرون كلّ طاقاتهم البشرية والمادية لإنجاز مشروع الهندسة الوراثية، الذي بموجبه يستطيعون التحكّم بالأمراض المستعصية كالسرطان والإيدز والسكريّ والتلاسيميا في مرحلتها الأولية... ونحن نُسلم رقابتنا للدجالين والمشعوذين وكشف الطالع والتمايم والتعاويد.

١ - كريم مروة: الطريق، العدد السادس، السنة السابعة والخمسون، صفحة ٢٨.

٢ - القرآن، سورة آل عمران، الآية ١١٠: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾.

هم يقتحمون المزيخَ عبر المحاولات المتتالية، ويُعدّون العُدّة لسبر مكامن غيره من الكواكب... ونحن ما زلنا نجادل في تأويل الآية الكريمة: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾<sup>(١)</sup>.

هم يكّدسون القطعَ البشرية في مختبراتهم... ونحن على اختلافٍ بينَ تحريمٍ قطعيٍّ للاستنساخ وتفريقٍ بين الخلق والتخليق.

هم يتفنّون بمبادئ مونتسكيو في «فصل السلطات» ويمبدأ ديكارط: «أنا أفكر إذاً أنا موجود»... ونحن نستهلك وقتنا وجهدنا في التنقيب عما اصطُلح على تسميته عندنا بالمرجعية التاريخية المؤهّلة، من تاريخ الطبري لدى فريق، إلى مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي لدى آخر.

هم يبتكرون «النيو ليبرالية» لإخضاعنا، وإلغاء الحدود - كلّ الحدود - أمام السلعة والثقافة المسلّعة، ولطمس الهوية القومية والشخصية الوطنية لشعوب الأطراف... ونحن ننام على أحقية الإمام علي بالخلافة ونهضُ على أحقية الخليفة أبي بكر بها.

هم يروّجون ليلَ نهار لنظرية فوكوياما في نهاية التاريخ إلا تاريخهم (!)، ويخضعون العالمَ لنظام الأرقام والحسابات، ويتباهون بأنهم أنجبوا ميلتون فريدمان الذي ابتكر إكسبير الحياة العصريّ أي النيو ليبرالية القائمة على إنتاج الربح وحده... ونحن ما زلنا نراهن على تراثٍ مُتخَمٍ بالنساء والسّراريّ والاعتقالات والتعذيب، ونستدعي كلماتٍ وعباراتٍ ذات وقعٍ خاصٍّ على أفئدة المؤمنين من العامة لإذلال الآخر وإلغائه مثل: «زندقة»، و«دعوى تفريق»، و«وقوع الحدّ» و«هدر الدم» و«ارتداد» و«إلحاد»... الخ.

هم شرّعوا ثمرة تطوّرهم وعلمانيّتهم، - عنيتُ الزواج المدني - فأنشأوا المحاكم التي تنظّم الزواج والطلاق والإرث، مع احترامهم الزواج الكنسي... ونحن هربنا إلى الأمام، ومرّة أخرى حصرَ النصّ ومن بعده التأويل والاجتهاد لمواجهة هذه «البدع» الاستكبارية المصلّلة، ولإنقاذنا من «الضلال» عبر سبيلٍ من أنماط الزواج (التعدديّ - العرفي - السيار - المؤقت... الخ)، وتراعت في الأفق، من جديد، الفتاوى الكبرى وأقلامُ التهيب والوعيد والتذكير باليوم الكبير.

«إلحادهم» أو شرؤهم الذي لا يُغتفر - برزَع من يُحجم القرآنَ ليدلّل على صوابِ الثّبات والسكون<sup>(٢)</sup> - أُلّف كُتُبا لدراسة

الموجبات والأسباب الاجتماعية والنفسية التي تقود إلى الانحراف أو السرقة، وأسس جمعياتٍ تُعنى عبر مُصلحين اجتماعيين بأحوال المنحرفين، وأقام مراكز تاهيلية لهذا الغرض... وأما «إيمان» بعضنا فقد جعلنا تقطع أيدي السارقين دون أن نعود إلى تحليل أسباب السرقة وتقديم ما يُمْنَع تكرارها.

«شركهم» قادهم إلى نقل البشرية في وقتٍ قياسيٍّ، لا يتعدى ثلاثمئة عام، من الجهل المُطبّق إلى الرخاء وغدو العيش، فالغوا المسافات، وجعلوا العالمَ كلّهُ قريةً صغيرةً (بصرف النظر عن خلفيتهم الإيديولوجية والاقتصادية) بفضل الكهرباء والهاتف والباخرة والإذاعة والتلفاز والطائرة والسيارة والقطار والفاكس والتلكس والخلويّ والإنترنت... وضيقُ أفقنا يدفعنا إلى تكبيل بنت السبع بالحجاب كي لا يشتبهها الرجلُ المحكومُ بالغريرة، وإلى منع المصافحة بين الرجال والنساء الحكومات بالشهوة!

هم يملكون قوة الانتقاد... ومعظمنا يملك قوة «الاعتقاد». ومن يملك قوة الانتقاد يقترب من العلم، ومن يقترب من العلم يقارب الحقيقة.

هم يقدّسون لاءات باراك الإستراتيجية... ونحن نُنذ لاءات الخرطوم في منفى التاريخ.

هم يهّبون «الجهة الديمقراطية لتحرير فلسطين» صكّ براءة (وهو بالنسبة إلينا صكّ إدانة) برفع اسمها عن لائحة الإرهاب الدوليّ، لأنها قد تضطلع بدورٍ ما في المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية... ونحن - عبّر «الجهة الشعبية لتحرير فلسطين» - نكافئهم بمزيدٍ من التنازلات وفتح باب الحوار مع السلطة الفلسطينية، لتقرير صيغة نهاية فلسطين لا صيغة الحلّ النهائي لقضية فلسطين.

هم يهزّون بالتاريخ وصورته، يجسّدون نظرية هيغل في مكر التاريخ أسوأ تجسيدٍ، يُلَبّون الاستثناء قاعدةً، يُتقنون اللعبة السياسية في عصر العولة الجديدة. وتحت شعار الدفاع عن حقوق الإنسان، وحقّ الأقليات، يتدخلون في الشؤون الداخلية للدول الحرة، فيجتاحون يوغوسلافيا بذريعة الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة في كوسوفو، وهدفهم في الواقع إذلالُ روسيا وتحقيرُ أوروبا في عقر دارها. ثم يعيدون الكرة في أندونيسيا بحجة إنجاز استقلال تيمور الشرقية، ذات الأقلية المسيحية في أندونيسيا المسلمة، وهدفهم في الحقيقة إيجادُ

١ - القرآن، سورة النازعات، الآية ٢٠، ويستند بعض الدارسين إلى هذه الآية للتأكيد على نجر كروية الأرض في القرآن. وردنا عليهم يؤكد أن ليس ثمة كلمة بين دفتي القرآن تشير إلى كروية الأرض، ويُحيلهم، في هذا الصدد، على مصدرين اثنين: الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، الجزء ٢٠، ص ٢٠، حيث نقرا: «الدُّحْرُ إنما هو البسط في كلام العرب، ودحاها: بسطها»... وابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الجزء ١٤، صفحة ٢٥١، حيث نقرا: «الدُّحْرُ البسط... والأدحجُ والأدحجُ والأدحجُ والأدحجُ: مَبْيُضُ النُّعَامَةِ في الرمل... لأنّ النعامَ تدحوه برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنعام عُشٌّ».

٢ - القرآن، سورة النساء، الآية ٤٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

موطئ قدم في آسيا. وحرصاً منهم على إحلال «الديموقراطية والسلام» في العراق، نراهم يستبجحون أمنه وكرامته وغذاء أطفاله، مستخدمين أرقى ما توصلت إليه تكنولوجيا عولمتهم... ونحن نواجههم بسيل من التشرذم والتشتت والقطرية.

هم يَمُنحون نجيب محفوظ جائزة نوبل للآداب (١٩٨٨) لقوله بالتطبيع مع «إسرائيل»... ونحن نحاول اغتياؤه بعد مرور ثلاثة وأربعين عاماً على تأليفه رواية أولاد حارتنا ونتهمه بالارتداد (الجبلاوي وأهل بيته في الرواية يرمزون إلى الله وأدم وعيسى ومحمد والعلم الحديث...).

هم يكرّمون أمين معلوف بمنحه جائزة «غونكور» على روايته صخرة طانيوس من ناحية، ويسعّرون حملتهم ضد إدوارد سعيد من ناحية أخرى لأنّ الثقافة الحقّة نقيض الإمبريالية... ونحن نرفع دعوى تفريق نصر حامد أبي زيد عن زوجته، لأنه اجتهد وقال باعتبار النصّ القرآني بشرياً بعد انتهاء الوحي.

هم ينكبّون على تنظيم اللقاءات، والتنسيق فيما بينهم، لاحتواء ما اصطليح على تسميته «بمشكلة العام ٢٠٠٠» في أنظمة الحاسوب والإنترنت... وبعض أسباط يعرب وإسماعيل يُطلّون على الألفية الثالثة بمآثرة مآثرهم التي سيفاخرون بها الأمم: وأعني قضية مرسيل خليفة مع يوسف!

إذا كانت الثقافة ثروة وثورة،

إذا كانت الثقافة هي قول «اللا في زمن النعم»،

إذا كانت الثقافة فكراً متحرراً وعقلاً مستنيراً،

إذا كانت الثقافة اختصاراً لفترة الحمل، وتلطيفاً لآلام الولادة والبعث،

فإنّ قضية مرسيل لهي قضية ثقافية بامتياز:

- فهل في إيصال مفاهيم قرآنية أخلاقية إلى شعوب العرب قاطبة، على اختلاف مللهم ونحلهم (مسلمين ومسيحيين وعلمانيين وملحدين...) ما يثير الإدانة؟

- وهل في استشعار الخطر الدايم، الناتج عن الضغينة والتفرق والفردية والتفرد، وفي إيصال رسالة رمزية من نصّ

له ما لهُ من تأثيرٍ عظيمٍ في لاوعي الأثرية الساحقة وفي وعي البقية الباقية، ما يستدعي الشجب والتكفير؟

كيف ندين من أعطى مأساة يوسف مع إخوته بعداً جمالياً خلاقاً، بواسطة آلة موسيقية تراثية عربية إسلامية (هي العود) - ومرسيل هو من هو في الأداء واللحن واختيار النص؟

إنّ من اختار، بملء وعيه وإرادته وقناعته، حمل لواء قضايا العرب الوطنية والقومية، وبذل كلّ جهده ووقته للدفاع عن مزارع التبغ وطفل الحجارة وبائع الخضار والسائق والمناضل والهوية، لا يسيء أبداً إلى مقدّسات جماهيره.

الم يقتدر مرسيل الذي قام ضغط الانعزال منذ البداية، وانسلخ عن محيطه [الطائفي] انتصاراً لقناعاته، ورفض التملق والابتذال والتسكّع على باب السلطان، بيوسف؟<sup>(١)</sup>

إنّ من يؤمن بالحرية وحقّ الاختلاف والخبز والسكر والليلك لا يمكنه إلا أن يجلّ اعتقاد شعبه ومريديه. ومن يدرّ غيره بغير حقّ يُدرّ.

وإنّ من يتحلّى بالشفافية، وبالجرأة أولاً، وبالجرأة ثانياً، وبالجرأة أبداً، ويتحصن بالثقافة لأنها آخر قلاعنا، لا يدين ولا يمكن أن يدان.

ونحن على موعد مع مرسيل ومع «غنائية الجسد» [شريطه القادم]، ومع جولة جديدة في معركة الثقافة.

\* \* \*

وبعد، أيها السادة،

حتام نبقى أقزماً لا نتقبل فكرة إعادة بناء أدمغتنا؟

حتام يقاضى القتل، حتى في قبره؟

حتام يظلّ القاتل هو الخصم والحكم؟

ما أقبحنا! ما أصغرنا!

كوني عاقراً، أرض العرب: فالحمل مخيف، قبل انتهاء

فصول هذه المسرحية الهزلية!

شتورة، لبنان

١ - ويوسف هذا كان قد أثار غيرة إخوته العشرة من أبيه (ما عدا بنيامين الصغير، أخاه من أمه راحيل وأبيه يعقوب) بسبب حلم راه وقصته على أبيه، فخشى هذا الأخير عليه من حقد إخوته، الذين اصطحبوه في نزهة وروموه في غياهب الجب، وأدعوا أن الذئب أكله (وهذا ما حدا بمرسيل خليفة أن يُشد بانّ «الذئب» كان «أرحم» من إخوة يوسف عليه)، فعزّز عليه أحد المسافرين، وباعه بدرهم معدودة إلى إحدى الشخصيات البارزة في البلاط الفرعوني، أي «فوتفار» زوج «زولياخا»، التي أعجبها حسن تصرف يوسف وسامته، فحاولت إغواؤه، لكنه تمنع، مرجحاً بذلك كفة العفة على كفة الشهوة. فشكته ظمناً إلى زوجها، الذي رماه في السجن تسع سنين. وذات ليلة، حلم الفرعون أن سبع بقرات عجاف ياكلن سبع بقرات سمان. ففسر يوسف هذا الحلم بأن أرض مصر ستشهد سبع سنوات شداد تلي سبع سنوات رخية، ونصح بتخزين الحبوب وشرائها من الخارج في الفترة الرخية. فأرسل يعقوب أولاده لشراء الحبوب من مصر، فتعرّف عليهم يوسف، وطلب منهم إحضار بنيامين لإتمام الصفقة، وعندما حضر أقام له حفلة دس في نهايتها كأساً ذهبية في متاعه وأثممه بسرقتها، وحكّم عليه بأن يصبح عبداً له. ولما يادر أحد إخوته لافتدائه، تأثر يوسف بالموقف، وأطلعهم على حقيقة أمره، وطلب منهم إحضار والده، وعاشوا سوية. وبذلك، يكون يوسف قد بادل إساءة إخوته بإحسانه إليهم.